فيرد التحية بأحسن منها ويستوقفني لينشدني قوله البديع في الشيخوخة:

إذا كتبت فخطي جد مضطرب كخط مرتعش الكفين مرتعد

فاعجب لضعف يدي عن حملها قلماً من بعد حطم القنا في لبة الأسد

وأتركه مشفقاً عليه لما آلت إليه حاله في كبره، وأتابع طريقي إلى الجامعة، وما إن أدخل قاعات الدرس فيها، حتى تتراءى لي شخصيته في صورة الأستاذ المحاضر وأغيب عن حسي لا بصره بعين الخيال يلقي علينا الدروس -نحن الطلبة- ويحدثنا عن كريم فعاله في الحروب التي خاضها، كما يقرأ لنا بين الحين والحين فصلاً من فصول كتابه (الاعتبار) ولا ينسى أن يلقي علينا من آن لآن طرفة من فرائد طرائفه يتندر بها علىأولئك الغزاة المتوحشين من ذوي العيون الزرق والشعور الشقراء.

وتضج القاعة بالضحك فأعود إلى صحوي وأدرك كم اشتط بي الخيال.

وأعود لنفسي أسائلها عن سبب هذه المحبة وذلك الإعجاب، فلا أجد عندها الجواب الشافي، فأقول في سري، لعلي أحببت الرجل لشاميته،ولأنني أشركه في الانتساب إلى ديار الشام، وأعيش على الأرض التي درج عليها كما درجت، وتنسم هواءها العليل كما تنسمت، وارتوى من مائها السلسبيل كما ارتويت، ولما لم أجد كلامي مقنعاً ألوذ بالصمت. ثم يخطر لي خاطر جديد فأقول: لعل تلك المودة حاصلة من كون الرجل بطلاً من أبطال إنقاذ الأجزاء السليبة من ديار الشام. ونحن نعيش اليوم نفس المأساة وما أشبه الليلة بالبارحة، فمسقط رأسي في (فلسطين) يرزح تحت نير الاحتلال الصهيوني منذ أكثر من ربع قرن وكأن التاريخ يعيد نفسه،وهانحن اليوم أحوج مانكون والحالة هذه إلى بطل من أمثال (أسامة) يخوض غمار حرب شريفة مقدسة لينقذ المقدسات، ويرد كيد الأعداء ويمسح العار والشنار عن جبين الأقصى المبارك أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين.

وأرى تفسيري في هذه المرة مقنعاً أو معقولاً،وعلى كل وأياً كان السبب في نشوء هذه المودة بيني وبين الشاعر الأمير، لا يسعني إلا أن أعترف بأن للرجل في نظري نكهة خاصة، ما عهدتها عند سواه من أعلام ذلك الزمان، وقد استطاع بذكائه ولباقته، أن يحتفظ بنكهته تلك سليمة معافاة، وأن ينقلها إلينا في كتابه الرائع الموسوم بالاعتبار، ويجيد بإعطائنا صورة رائعة لواقع حاله ويرسم لنا شخصيته الفذة الأخاذة، فكتب لحياته خلوداً دائماً ومستمراً إلى آخر